من زاوية تربوية

رُؤيَتِي لاحْتِفَالِيَّة كُلِيَّتِي
بيُوبِيلِهَا الذَّهَبِيّ

إعداد

أ.د/ حسين عبد العزيز الدريني

الأستاذ المتفرغ والعميد الأسبق لكلية التربية بنين بالقاهرة،

جامعة الأزهر

رُؤيَتِي لاحْتِفَاليَّة كُليَّتِي
بيُوبِيلِهَا الذَّهَبِيّ

استيقظ العجوز – الذي أشرف على الثمانين من عمره – صبيحة يوم الإثنين 21 ديسمبر 2020م على غير عاداته اليومية. استيقظ مبكرًا فَرِحًا مليئًا بالنشاط والحيوية، بالرغم من كواهل العمر والحياة. كان سعيدًا يردد فى خَطْوِهِ ذهابًا وإيابًا إحدى رباعيات صلاح جاهين:

في يوم صحيت شاعر براحة وصفا

الهم زال والحزن راح واختفى

خدني العجب وسألت روحي سؤال

أنا مت؟ ... ولّا "رجعت" [1] للفلسفة

صار العجوز يتساءل بعد هذا العمر الطويل ما السعادة؟ ما سرها؟ وهل هي سعادة حقًّا أم طيف سعادة عابر؟ بعد فترة من التأمل ومراجعة الذات أجاب العجوز أنَّ السعادة إنما هي انعكاس لدرجة الرضا الذي يستشعره الفرد، إنها انعكاس لشدة الانفعالات السارة التي يخبرها الشخص، إنها الاستمتاع والشعور بالبهجة التي يعيشها الإنسان.

اكتشف العجوز أنه يعيش منذ ذلك اليوم نوعين من السعادة: إحداهما ذاتية والأخرى موضوعية. فأما السعادة الذاتية فمصدرها أنه عاش في يوم 20 ديسمبر 2020م مشاعر نبع فياض من الأبوة الحقيقية نحو أبنائه، وبنوة غامرة من أبنائه وأحفاده أعضاء أسرة الكلية. تلك السعادة التي نسيها وتوقف عن معايشتها منذ رحيل ولده الوحيد إلى جوار ربه في عام 2007م. سعادة متبادلة كان يلمحها في بريق عيون المحتفلين بكليتهم. وكان يلمحها في إقبالهم نحوه في خُطى نشيطة مليئة بالفرحة لتحيته. سعادة مصدرها الرضا عما يكون قد أسهم به في خدمة تلك المؤسسة العريقة.

آه .. لقد عشت حياتي أعرف كم أحب كُليتي، ولكنني لم أدرك مقدار هذه المشاعر إلا حينما تأكَّدت وتثبَّت من فقدان مشاعر الخطر وتيقنت من مشاعر الأمان والاطمئنان على مسيرة كُليتي في دروب النجاح الإنساني والعلمي والتربوي، وكأني أردد مع صلاح جاهين:

طال انتظارى للربيع يرجع
والجو يدفا والزهور تطلع
عاد الربيع عارم عرمرم شباب
"هوه ده اللي خلاني أفرح وأزقطط"

---

(1) القوسان في الأشعار يشيران إلى تعديل خاص بالكاتب الحالي

تلكم كانت سعادتي الذاتية.

أما سعادتي الموضوعية فمردها أن احتفالية الكلية بيوبيلها الذهبي تقدم دليلًا عمليًّا مخلصًا أمينًا نزيهًا لاستمرارية الحياة.

لقد رأيتُ "النَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ"، حلو المذاق، جميل المنظر، غزير العطاء، متوهج الضياء، يزداد بريقه لمعانًا كلما سقطت عليه الأضواء.

تبدأ استمرارية الحياة من العودة للجذور وإزالة ما قد غشاها من غبار السنين وما ألمَّ بها من عواصف الإهمال أحيانًا والأنانية والنفعية أحيانًا أخرى. ومع تلك الاستمرارية كان تشييد الجسور بين الماضي والحاضر تطلعًا وامتدادًا نحو المستقبل المشرق. وعلى تلك الجسور عادت بعض القيم الأصيلة للظهور. قيم أخذت تتهادى في خفة ودلال، معجبة وفخورة بإخلاص الأبناء والأحفاد، وفَرِحَة بعطائهم لمؤسستهم. إنها قيم تحدد ما يصلح وما لا يصلح.

من بين تلك القيم وأولاها ورائدتها على جسر المحبة: "الولاء". ولاء للمؤسسة وأهدافها، ولاء لم يكن بالهتاف أو الصياح إنما بالعمل الجاد الذي يُؤدَّى، وفي العمل ذاته يكون الإخلاص. إن الولاء يكون أساسًا للأخلاق كلها، فما مِن فِعل أو عمل يؤسس على القواعد الأخلاقية إلا ويتجه نحو غاية أردناها أو نريدها وتخلص لها. إنه دمج الذات الفردية في المؤسسة.

وثاني تلك القيم العابرة على جسر الوفاء والبناء "عدم المغالاة في مدح الذات" والحديث عنها بفخر وافتخار زائد. إنَّ مدح الذات خَلْقٌ لعالم خاص من اختراعنا نرتاح فيه وإليه. إنه يثير من التعجب أضعاف ما يُحدثه من مصداقية. إنَّ المغالاةَ في مدح الذات انفصالٌ للأقوال عن الأفعال، وارتباطها بالشخصانية بديلًا عن الموضوعية. إنها دائمًا خاوية من الجوهر والمعنى.

إنَّ عدم المغالاة في الحديث عن الذات ومدحها هو علاج ناجع "للنفخة الكذَّابة"، إنَّها نفخة كالقط يحكي انتفاخًا صولة الأسد. إنَّها نفخة تُخفي وراءها خواء وإدّعاء ما ليس له، إنَّها تكون وبالًا على المؤسسات لأنها تحجب الحق بالباطل، وتُعلي الغرور على التواضع، والذاتية على الموضوعية، والنفعية على التضحية، والأنانية على الغيرية ... إلى أن يشاء اللهُ للحق ظهورًا وانتشارًا، وللباطل اختفاءً واندثارًا.

إن المُتَّشِح بالنفخة الكذَّابة لا يقنع بما لديه من مصادر القوة، بل يسعى دائمًا إلى المزيد. إنَّه لا يريد الزيادة لذاتها – لأنَّه قد يعلم حق العلم أن ما لديه يكفيه – لكنه يريد هذه الزيادة ليزداد ضمانه ببقاء هذا الذي يكفيه، ولتزداد خشية الناس وطاعتهم إياه ظنًّا منه أنه بذلك يكون في موقف حصين فلا يسهل الإعتداء عليه أو النيل منه. إنَّ هذا الاعتقاد أو الظن نوع من

المغالطة الذاتية الخاصة بالعصمة أي التحصين من الأذى، إنَّها بذلك نوع من خداع الذات للذات. إنَّ هذه القيمة ما هي إلا واحدة من وسائل تصويب العقل عن الإغراق فى "الكلام الكبير" أو أننا "حضارة كلامية حنجورية ميكروفونية."

أما القيمة الثالثة التي عبرت في خطى رصينة ثابتة على جسر الإخلاص فهى قيمة "التدين تدينًا يصنع الحضارة". فطلاب كلية التربية جامعة الأزهر توليفة من أبناء الأقطار الإسلامية بأبعادها الأربعة الآسيوي والإفريقي والنيلي والمتوسطي من الدارسين للعلم الحديث والعلوم الدينية. عبّروا عن تلك القيمة شعرًا وتمثيلًا وخطابةً وإنشادًا في إطار من الحداثة والأصالة والتوسط والتوازن والاعتدال.

وجاء تعبيرهم هذا دليلًا على نقص شعورهم بالغربة أو الاغتراب في المجتمع المصري العربي الإسلامي، وانعكاسًا لأذواق الجماعات البشرية التي يعايشونها فألّف الله بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته إخوانًا.

وبعد ... ألا يحق لنا أن نستعير من المتصوفة بعض أقوالهم تعبيرًا عن حبنا لكليتنا

أحبكِ حبين

حب الهوى ... وحبًّا لأنكِ أهلٌ لذاكَ

فلا " الفضل " في ذا ولا ذاك لي...

ولكن لكِ "الفضلُ" في ذا وذاكَ.

تلكم كانت بعض مصادر سعادتي وموضوعي

أ.د/ حسين عبد العزيز الدريني

الأستاذ المتفرغ والعميد الأسبق

لكلية التربية بنين بالقاهرة،

جامعة الأزهر